



كم سورياً ينبغي أن يتجمد من البرد؟ وكم فلسطينياً ينبغي أن يلحق بسكان البيوت المدمرة في غزة، لكي يستيقظ الضمير العربي ويمد إليهم يد الإغاثة والعون؟

وهل نستطيع أن نقول إنه حين تجمد هؤلاء بسبب الصقيع والبرد، فإن قلوب ملايين العرب تجمدت بدورها، فما عادت تحركها صور الأطفال المجمدين، ولا صور أهاليهم الباكين الذين أعجزهم الصقيع حتى عن دفنهم.

وما عادوا يستشعرون الذنب حين يطالعون منظر كبار السن وهم يرتعشون ويدررون الدموع، من شدة البرد والجوع، بعدما ضربت الرياح الثلوجية خيامهم. حتى أوقعتها فوق رؤوسهم ولم يستطيعوا لها دفعاً.

قبل يومين قرأت عن الطفلة رهف أبو عاصي التي لم تحتملbiaض في غزة، فماتت من شدة الجوع والبرد بعد شهرین فقط من ولادتها، قرأت في الوقت نفسه، عن الطفل السوري ابن السنوات الثمانى الذي تجمد من البرد في شبعا، وعن الأطفال الخمسة الذين لقوا ذات المصير في دوما بريف دمشق.

وذلك أخبار صارت يومية وروتينية حتى بدت وكأنها حوادث عادية، وإن صرنا نطالع تلك الأخبار يوماً بعد يوم، فإن التقارير باتت تحمل إلينا صوراً مفزعة وصادمة من المخيمات المقاممة على الحدود، بين سوريا وبين كل من الأردن والعراق ولبنان وتركيا، وهي لا تختلف كثيراً في مضمونها عن التقارير التي تخرج من قطاع غزة ومعاناة أهله الذين دمر الإسرائيلىون بيوتهم حتى تركوا عشرات الآلاف منهم في العراء لإذلالهم والتنكيل بهم.

أدرى أن نكبات العرب تعددت في هذا الزمان، إلا أن نكبة السوريين والفلسطينيين أكبر من غيرهم، للأسف فإن الفلسطينيين كانوا سباقين حيث نكبوا بالاقتلاع والطرد من جانب الإسرائيلىين منذ عام 48 حتى الآن، ثم نكبوا برموزهم الذين فرطوا في قضيتم ونسقوا مع عدوهم، ونكبوا مرة ثالثة بأشقاءهم الذين أداروا ظهورهم لهم وشاركوا في حصارهم

وإذلالهم، أما السوريون فإن نكبتهم المستمرة منذ أربع سنوات تسبب فيها نظام أبدي استعداداً مدهشاً لإفناه الشعب السوري وتدمير البلد كله، مقابل استمرار احتكاره للسلطة، ولم يتوقف سعيه ذاك طوال تلك المدة، مستعيناً ببعض الأشقاء والخلفاء.

لا نستطيع أن نصف الصمت العربي إزاء ذلك بأقل من أنه نكبة أخرى، بل فضيحة تاريخية، حيث ما خطر ببال أحد أنه يمكن أن يتعايش ملايين من العرب الذين يعانون من البرد والجوع، جنباً إلى مع ملايين آخرين من العرب يشغلون بالمهرجانات الغنائية وسباقات الإبل وحروب الانتحار الداخلية.

لم نسمع أن الجامعة العربية دعت إلى اجتماع لشحذ همة الدول الأعضاء لكي تقوم بواجبها إزاء الفلسطينيين والسوبيين، لم نسمع أن الهلال الأحمر العربي ولا منظمات الإغاثة في الأقطار المختلفة استنفرت ونظمت حملات لتوفير الاحتياجات للمنكوبين ولإعمار قطاع غزة، لم نسمع عن تحرك للنخب المهتمة بالتضامن العربي أن رفعت صوتها منادياً بإيقاظ النائمين وتتبّيه الغافلين، لكي يؤدي المجتمع العربي واجبه إزاء الخطر الحال والكارثة المحدقة.

لا أستطيع أن أجاهل أن بعض الجهات أسهمت في الإغاثة ولكن إسهامها كان دون المطلوب، وألتمس العذر للذين حاولوا إيصال بعض المعونات إلى المحاصرين ولكنهم منعوا من ذلك، وهو ما أعتبره موقفاً مشيناً وعاراً لن ينسى ولن يغفر، كما أننا لا نستطيع أن نقلل من شأن حملة الإغاثة التي تقدمها المنظمات التركية، إلا أن الحمل يظل أكبر وأثقل مما تستطيع القيام وحدها به.

في هذا الصدد، فإننا لن نستطيع أن نعاتب أو نلوم المنظمات الإغاثية العالمية، لأن هناك أكثر من رد يسكننا ويخلجنـا، ليس فقط لأن هناك تقصيرًا عربياً في إغاثة الفلسطينيين والسوبيين، ولكن لأن بعض الدول النفطية الفارقة على العطاء والعون أصبحت تفضل الإنفاق بسخاء على دعم الثورة المضادة للربيع العربي في أكثر من بلد، وتقدمه على جهود إغاثة الإنسان العربي لإبقاءه على قيد الحياة.

الخلاصة أنه يتعمّن علينا أن نعترف بأنه ما عاد للعرب نظام أو كيان نطالبـه بأن يقود حملة إنقاذ السوبيين والفلسطينيين المشردين والمهددين بالموت. أيضاً ما عاد للعرب كبير نحاطـه وندعوه لأن يتحمل مسؤوليته إزاء أشقاء الأصغر منه، وما عاد لهم مجتمع مدنـي يعبر عن ضمير الأمة وألامـها، بوسـعه أن يضغط على أصحاب القرار ويطالـهم بتحمل مسؤوليتـهم التاريخـية في التخفيف من عذابـات أبناء الأمة الذين جـار عليهم الزـمن، بل ما عادـت في العالم العربي منظمـات إغاثـية قادرـة على التعبـة والحرـكة، بعدـما عصـفت السياسـة بالأنشطة الأهلـية وقامـت بتـأسيـمـها وتوظـيفـها لصالـح حـسابـاتها.

في السابق كانت تظاهرات السوبيين تجـارـ بالندـاءـ: ما لنا غيرـك يا اللهـ.

و قبل أيام قليلـة تـناقلـت مواقع التواصل الاجتماعي نداء يـردد نفسـ الفـكرةـ إذ يقولـ ما معـناهـ، لا تـجهـدواـ أنفسـهمـ في التـواصـلـ معـ الخطـوطـ الأرضـيةـ فـكلـهاـ مـقطـوعـةـ أوـ مشـغـولـةـ، وماـ بـقـيـ مـفـتوـحـ أـمامـكمـ سـوـىـ أـبـوابـ السـماءـ، فـإـلـيـهاـ تـوجـهـواـ بـالـدـعـاءـ أـنـ يـنـزـلـ اللهـ رـحـمـتهـ عـلـىـ عـبـادـهـ المـقـهـورـينـ وـلـعـنـتـهـ عـلـىـ الـظـالـمـينـ وـالـمـسـتـبـدـينـ.

لـناـ أـنـ يـرـدـ معـهـمـ نفسـ النـداءـ. ولكنـ هلـ يـئـسـنـاـ تـاماـ منـ أيـ جـهـدـ إـغـاثـيـ يـبـذـلـ عـلـىـ الـأـرـضـ. وإذاـ كـانـتـ الشـهـامـةـ وـالـمـرـوـءـةـ قدـ اـخـتـفـتـ فـيـ زـمـانـنـاـ، فـهـلـ اـخـتـفـتـ إـنـسـانـيـةـ أـيـضاـ وـفـسـدـتـ الضـمـائـرـ إـلـىـ ذـلـكـ الحـدـ المـشـينـ وـالـمـخـجلـ؟

الشروق

المصادر: